طلقة (٢٣)

مع إسماعيل.. عفى الله عما سلف

واعترف إسماعيل..
على فراش الموت!

إذا كان الذهاب إلى لندن لعبة لإبعاد الشاذلي فإنها لم تستمر، وظهرت لعبة أخرى لإبعاده إلى البرتغال والمبررات موجودة، حيث قامت هنا ثورة عسكرية ولابد لعسكري فاهم من أن يتواجد هناك، حتى وان كانت الجالية المصرية غائبة تماماً.

والشاذلي لا يعرف المستحيل كعسكري خبير لذلك بدأ يؤهل نفسه برتغالياً وكانت الخطوة الأولى أن يتقن لغة أهلها في أسرع وقت، وأن يجمع المعلومات عن تلك البلاد التي تقع على جانب المحيط الأطلسي لشبه جزيرة أيبريا تحدها من الشمال والشرق اسبانيا وتشمل جزر الأزور ومادیرا وينتشر الملايين من أهلها في فرنسا وألمانيا وانكلترا ويعتنق معظم أهلها الديانة المسيحية الكاثوليكية والعملة فيها الأشكوذو، قامت الثورة هناك في ٢٥ ابريل ١٩٧٤ ولذلك يترأس رئيس الجمهورية المجلس العسكري وهو القائد العام للقوات البرية والبحرية والجوية، ويعمل بالزراعة حوالي ٣٠٪ من الشعب وأهم المحاصيل القمح والذرة والشعير والأرز ويوجد بالبرتغال ثروة معدنية أهمها الفحم واليورانيوم، والسياحة هي أهم موارد الدخل القومي، وقد تم تأميم الاذاعة والتلفزيون بعد الثورة هناك.

والسؤال الآن ماذا سيفعل السفير وأمامه متسع من الوقت في بلد تمرد على حاكمه الطاغية «سالازار» الذي استمر في الحكم ٣٨ عاماً وألغى الأحزاب وزور الاستفتاءات وكان الشاذلي يشبهه بالسادات، وحقيقة الأمر هو أقرب إلى مبارك الذي استمر في الحكم ٣٠ عاماً من الاستبداد.

ولأن الفراغ هو العدو اللدود للشاذلي فكر أن ينتهز الفرصة ويؤدي فريضة الحج وطلب سفير مصر في الرياض ليسأله وبعد أيام فوجئ بسفير السعودية في المغرب يخبره أن هناك دعوة ملكية مقدمة له ولزوجته للحج وحاول الاعتذار ولم يتمكن لأن دعوات الملوك لا ترد وعاد إلى مصر أياماً قليلة التقى خلالها أهله وأصحابه في شبراتنا الذين طالبوه بكتابة مذكراته ووعدهم بأن يفعل قريباً وعندما سافر إلى الحج تلقى دعوة للقاء الملك الذي كان يجمع كبار الشخصيات خلال

موسم الحج وسأل الملك سعد الشاذلي عن رأيه في زيارة السادات إلى إسرائيل فرد أنها قفزة في الظلام وأنه لا يؤيده وقد التقى وقتها علي حمدي الجمال رئيس تحرير الأهرام وقتها وسأله عن رأيه في مبادرة السلام التي أطلقها السادات وأكد أنه لا يؤيدها وسأله أن كان سيكتب هذا الكلام ورد الجمال بالايجاب ولكنه عندما عاد إلى القاهرة كتب مقالاً يمتدح فيه مبادرة السلام العظيمة.

ولعل من أفضل ما خرج به الشاذلي في هذه الرحلة بعد المدد الروحاني أنه فكر بالفعل في كتابة مذكراته وقد استغرق ذلك حوالي سنة، ويبدو أن هذه المذكرات كانت المسمار الأخير في نعش علاقته العاصفة بالسادات بكل ما فيها من مد وجزر.

يستعيد الشاذلي بعد رحلة الحج المباركة كلمات زميله عبد المنعم واصل عندما قال له أثناء حرب أكتوبر: يا سعد تأكد بعد النصر أن البطل الوحيد الذي سيبقى على الساحة هو السادات، فقد مات أحمد إسماعيل نهاية عام ١٩٧٤ متأثراً بمرض السرطان وكان ذلك في لندن وقت عمل الشاذلي كسفير ومن باب الانسانية والواجب زاره في مستشفاه، حيث يعالج، والانسان يستشعر بقرب أجله ويحاول أن يتخفف من أثقاله، لذلك همس أحمد إسماعيل إلى الشاذلي في لحظة صفاء:

- يا سعد.. أنا لم أظلمك لكن السادات هو الذي طلب مني أن استبعد اسمك من احتفالات تكريم أبطال أكتوبر التي جرت في مجلس الشعب!!

ووقتها كان يتابعها كجندي مجهول أمام شاشة التلفزيون مثل غيره من الملايين ، وكأنه لم يحارب أو يخطط للعبور العظيم وأحزنه أن تكرم سوريا أبطالها ومعهم الشاذلي ويتم تجاهله في بلده، واستثمر السادات كتائب الإعلاميين والصحافيين من حوله وأوحي اليهم بمهاجمة الشاذلي، وقد فعلها موسى صبري في كتابه وثائق ١٥ مايو ثم حمدي لطفي في كتابه (العسكرية المصرية فوق سيناء) الذي تناول سيرة أحمد إسماعيل والجمسي وفؤاد ذكري قائد القوات البحرية وحسني مبارك قائد القوات الجوية وسعيد الماحي قائد المدفعية وآخرين من

قيادات متوسطة مثل كمال حسن علي وجمال الدين محمد، بينما تناسي الشاذلي ولم يذكر حرفاً واحداً عن دوره، وعندما أصدرت الشؤون المعنوية كتاباً عن حرب أكتوبر في عام ١٩٧٧ تحدثوا فيه عن الخطط والمعارك والأحداث ولم تشير إلى اسم سعد الشاذلي بأي عبارة سلبية أو ايجابية، واكتمل الأمر بكتاب السادات نفسه (البحث عن الذات) ورأينا سابقاً كيف تجاهل الشاذلي وكأنه لم يكن في صفوف الجيش ثم جاء مبارك من بعده، واستمر على نفس المنوال وزاد ذلك بأن سجن الشاذلي وجرده من أوسمته ونياشينه وامتيازاته وتمت معاملته كمتهم ومجرم حرب أفشي أسرار الدولة، ومضى الإعلام على ذلك النحو نفاقاً لمبارك، الذي استبدل صورة الشاذلي في غرفة العمليات بصورته هو، واختصر الحرب كلها في ضربة جوية قام بها حسني مبارك قائد هذا السلاح وكأن الحرب كلها هي طلعات جوية فقط قادها مبارك وحده، ولذلك كان من الصعب أن يتم تصحيح وضع الشاذلي لأن هذا معناه ببساطة من وجهة نظر مبارك سحب البساط كبطل من تحت قدميه وكشف الحقائق أمام شعبه وهو ما لا يريده لذلك حاول بكل ما يملك ابعاد الشاذلي عن دائرة الضوء، ولما بدأت قناة الجزيرة في فتح صندوق الكنز الكبير المسمى بسعد الشاذلي، كانت ضربة موجهة إلى مبارك لم يقدر على صدها، لأن الشاذلي وقتها كان قد خرج من السجن بعد انقضاء فترة العقوبة ولم يكن سهلاً الإمساك به وقد سجل حلقات شاهد على العصر التي فضح فيها كل شيء، خارج مصر، وشاهدها الملايين في مصر والعالم العربي، ومع ذلك أطلق أجهزة الإعلام المصرية تنافق مبارك على حساب 'لشاذلي حتى تم خلع مبارك من عرشه، في نفس الليلة التي رحل فيها الشاذلي لملاقاة ربه نقياً صادقاً حتى اللحظات الأخيرة.

نقطة تحول

هنا قصة طريفة من الهند كتبها لفرنسي فوليتر عن زيارة قام بها إلى درويش هندي اسمه (بابابيك) كان يجلس عادياً على كرسي مطرز بالمسامير وكأنه جالس على القطن والحرير وكانت النساء تأتي للتبرك بهذا الدرويش الذي يعلق في عنقه

سلسلة ثقيلة وزنها يزيد على ٣٠كيلوجراماً، النساء تسال والدرويش فوق المسامير يجيب ويقدم النصائح ودار بينه وبين صديق للكاتب هذا الحوار:

الصديق: أنني مواطن صالح وزوج صالح وصديق وفي واحترم جيراني وأتصدق على الفقراء فهل تظن أنني سأبلغ الدرجات العليا في الجنة؟

الدرويش: وهل تجلس على المسامير أحياناً؟

الصديق: لا أفعل ذلك.

الدرويش: هذا شيء مؤسف سوف لا تتجاوز السماء ١٩ في حياتك الأخرى.

الصديق: وأنت أيها الناسك المحترم في أي سماء ستكون مع كل هذه السلاسل؟

الدرويش: أعتقد أنني سأكون أقرب إلى الأعالي في السماء ٣٥ مثلاً!!

انها مجرد حكاية بطلها درويش هندوسي، لكن المعنى يصلح لكل شخص، وتبدو كما لو أنها قيلت خصيصاً للشاذلي الذي كان دائماً وأبداً جالساً على المسامير التي توضع في طريقه طوال الوقت وهو يحولها إلى قطن وحرير، ويرتفع بها إلى أعلى.

بطولة الشاذلي الحقيقية كما قال بعض النقاد والكتاب ليست في عقليته الحربية الفذة، لكن في وضوحه الباهر في زمن ضبابي، هو دائماً لا يقصد الا الخطوط المستقيمة والأمور من حوله تلف وتدور وتناور في المنحنيات والدهاليز.

وعندما عاد من رحلة الحج المباركة كانت الكثير من الأمور قد حسمت أمامه وقرر قطع الشعرة الأخيرة مع السادات وأن يواجهه بكل قوة، وأن يلقي اليه غير آسف بالبطاقة الدبلوماسية التي تربطه رسمياً بنظامه وحكومته وقوانينه.

كان يرى الصورة عن بعد من لشبونة عاصمة البرتغال وها هي العلاقات مع أميركا تزدهر على حساب الجانب السوفياتي وقد كان الداعم الرئيسي لمصر في

معركتها رغم كل شيء بعكس أميركا التي قدمت جسراً جوياً رهيباً لإسرائيل، وهو معناه فتح الباب للاستدانة من الخارج وهي القروض التي صنعت انتعاشاً اقتصادياً مزيفاً، حيث أن فوائد هذه القروض بعد سنوات سوف تتحول إلى قيود صلبة ضد اقتصاد مصر الذي اتبع سياسة انفتاح السداح مداح كما وصفه الكاتب الراحل الكبير أحمد بهاء الدين، ثم هذه الحملة الشرسة المنظمة لتشويه صورة عبد الناصر وعصره بكل السبل ومحو انجازات ثورة ٢٣ يوليو واستبدالها، بحركة التصحيح التي أطلقها السادات على انقلاب ١٥ مايو وبذلك استمر خداع الناس باسم الديمقراطية، وبلغت الأمور ذروتها بزيارة السادات لتل أبيب أو الأراضي الفلسطينية المغتصبة في نوفمبر ١٩٧٧، والسعي لاقامة صلحه المنفرد مع العدو، وهو القرار الصدمة لأجيال عربية شبت على كراهية العدو الصهيوني وضرورة استعادة القدس الشريف والمسجد الأقصى السليب أولى القبلتين وثالث الحرمين ومسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومركز الحجيج المسيحي في كنيسة القيامة بما تمثله من قداسة في قلب كل مسيحي وكل مسلم أيضاً.

عاد الشاذلي من الحج ونواياه خالصة وقد عقد العزم على مواجهة هذه الأباطيل كلها، وكأنه يودع أهله وأحبابه في مصر، وسافر إلى لشبونة عاصمة البرتغال ولحقت به السيدة زينات السحيمي زوجته بعد أن أخبرها بقراره أنه لم يعد يحتمل الاستمرار في نظام متخاذل على هذا النحو.

وكانت الزوجة بنت الأكابر والأصول تدرك أن سعد يستمد قناعته من ايمانه بالله ووطنه وعروبته، وهي معه قلباً وقالباً، وكانت الجزائر واليمن وسورية والعراق وليبيا قد قررت قطع علاقتها مع مصر احتجاجاً على زيارة السادات لإسرائيل.

ظلت مواعيده كسفير كما هي وبرنامج عمله كالمعتاد، حتى يطلق قنبلته المرتقبة في توقيتها الصحيح، وكما بنى خطته في حرب أكتوبر على عنصر المفاجأة، وقد اعترف بذلك العدو الصهيوني أكثر من مرة على لسان كبار قادته!